الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة أبوبكر بلقايد ولاية تلمسان

السنة الجامعية 2019-2020

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الانسانية والاجتماعية — قسم الماستر 01 فلسفة غربية حديثة ومعاصرة

شعبة الفلسفة — الدرس النظريُّ رقم 06

السداسي الثاني — **النظرية العامة في الحِجاج**

مقرر الحجاج الفلسفي

تحت إشراف الأستاذ: بلقناديل عبد القادر

النظريَّة العامة في الحِجاج

تمهيد عام

ثلاثة تصورا ت لابد منها

الجمهور المتلقي للخطاب وقيام الحجاج

مختلف أنواع الجماهير المتلقية للخطاب

تصور الإذعانية في الخطاب الحجاجي

الحجاج، الالتزام والعنف

خلاصة عامة

تمهيد عامٌ

جميع الناس* وكل داخل مؤسسات المجتمع أو على الهامش لا يكلون ولا يملون من البحث عن كيفية التأثير في بعضهم البعض، تأثير وتأثر يختلف ويتنوع حسب الأفراد،

---

* لهذا الغرض اضطرّ "**الإنسان**" لإعمال **عقله** أكثر مما مضى فهو دائم "**التعليلات**" إنها **المادة الخطابية لإنتاج المحاجَّة**؛ وتعود مادة هذا الفصل إلى **قراءة المصادر** التالية لـ (بيرلمان–تيتكا): المفصّل في المحاجة – 1958. عناصر من أجل نظرية للمحاجة– 1968. المنطق والمحاجة– 1968. المنطق والبلاغيات– 1950. الفعل والشخص ضمن المحاجة – 1951. كيف نستدلّ حول القيم – 1955. الأطر الاجتماعية للمحاجة– 1959. الفلسفة والبلاغيات– 1960. البلاغيات والفلسفة– 1969. نظرية فلسفية في المحاجة – 1968.

بحوث ما بين تخصصية حول المحاجة – إمبراطورية البلاغيات: البلاغيات و المحاجَّة– 1977

المؤسسات والمناسبات... لكن الجوهر واحد، هو "النفوذ" إلى الغير والاجتهاد في تعديل وجهة نظره نحو أمر ما ثمّ تحفيزه إثر ذلك على إنجاز عمل ما.

كما أننا نعيش في **عصر تحكمه القوانين المدنية** من جهة **وقواعد الاتصال** من جهة أخرى. لذلك أصبح اللجوء إلى أساليب العنف المباشر أو التعزير من الأمور المشبوهة والمرفوضة عند الجميع (أفراد ومؤسسات) ... عوضاً عنه أصبح الإنسان اليوم يبذل قصارى جهده في إقناع الآخرين و اقحامهم بواسطة الخطاب؛ الخطاب الإقناعي هو اليوم بمثابة سلاح العصر.

I-ثلاثة تصورات لابد منها

1. الخطيب: من يقول-يكتب
2. الخطاب: القول-النصُّ
3. الجمهور المتلقيِّ للخطاب: من يصغي-يقرأ

الخطيب، هو " كلّ من يقوم باستحضار المحاجَّة، شفوياً أو بواسطة الكتابة. أما **الخطاب**، يشير إلى المحاجَّة بحدّ ذاتها، سواء تعلّق الأمر بخطاب مرصن أو مجرد دعوى كيفما كانت، تهدف إلى التأثير

في **الجمهور المتلقي للخطاب**".[1] يُضيف (بيرلمان) فيما يتعلّق بالجمهور المتلقّي للخطاب على **أنّه يخصّ**، "جميع أولئك الذين يجري تصويب المحاجة نحوهم، سواء كانوا مستمعين أم قراء."[2]

المُلاحظ هنا أن تصور الجمهور المتلقي للخطاب، يمثّل الخاصية المميزة للبلاغيات الجديدة، وذلك على خلاف المنطق بالمعنى الحصري أو الضيق؛

"على خلاف البرهنة في الرياضيات، فإن كل محاجة، إنما تتوجه نحو جمهور متلقي للخطاب، وبكل وضوح تكون مشروطة بواسطة طبيعة الجمهور المتلقي للخطاب. أما البرهنة، تقدم نفسها باعتبارها لا شخصية، في حين أن الخطاب الحجاجي هو على الدوام مقاميٌّ. عندما يتعلّق الأمر ببرهنة مرصنة، كل ما يهمّ، هو التعرف على العلامات المستعملة، الطريقة التي يكون في المستطاع توليفها لأجل تكوين تعابير سليمة، أوليات للانطلاق، ثم ضوابط تسمح بالاستنتاج من تلك الأوليات أو من الأطروحات المبرهنة، مبرهنات أخرى وهكذا. إن سؤال "من يقبل هذه الضوابط وهذه القضايا" لا يطرح نفسه هنا، إما لأنه من شأنها أن تكون مقبولة لدى كل موجود عاقل، بسبب بداهتها، أو لأن كل واحد هو حر في تشييد النسق الأكسيومي الذي يحلو له، بفضل مبدأ "التسامح" الذي أدخله (كارناب–R.CARNAP، شريطة القضاء كلياً على كل إبهام فيما بين العلامات وكل التباسٍ في عبارة الضوابط؛ رغم ذلك، كما نعلم. كل واحدة من وجهتي النظر هاتين تضطر للإقرار ببعض التحفظات. في سياق المفهمات التراثية، كنا يومها مضطرين بالفعل إلى الإقرار بالمسلمات الإقليدية عند الانطلاق، هذه التي لم يدع أحد أنها بديهية.

لكن في المفهمة الحديثة، لم يعد في المستطاع التسامح مع الأنساق المتهافتة، هذه التي تسمح في آنٍ واحدٍ بالبرهنة على القضية ونفيها. ذلك لأنّه أمام هكذا مقام، واستنادا لمبدأ عدم التناقض، لكن يكون في مقدورنا الإقرار سوى بفرضية "صدق" مبرهنات متناقضة. إلا أنه بعدما جرى إلغاء فرضية التهافت، وقد أصبح النسق خالياً من كل غموضٍ إجرائي، ما كان لنا، ونحن أمام كل واحدة من البرهنات، سوى طرح

[1]- PERELMAN(Chaïm) 1968 ; Eléments d'une Théorie de l'Augmentation ; PUB ; p.17

[2]- PERELMAN(Chaïm) 1959 ; les cadres Sociaux de l'Argumentation ; in les Cahiers Internationaux de Sociologie ; p.25

سؤال "معرفة ما إذا كان الدليل مطابقاً للضوابط أم لا". بعد كلّ هذا، فإن كافة الأسئلة المتعلّقة بالأشخاص وبحادثة أنهم يقرون بضوابط النسق أو بأنهم مقتنعون بواسطة الإجراءات البرهانية لن تطرح أبداً داخل حرم النسق. فعملية التدبّر في النسق أو في ما هو بديل أوّلا، عند الإقرار بضوابط معيّنة أو أقوال مأثورة محددة، إنما تعود في الأصل إلى المسبقات، أو تلك التدبريات المنهجية التي تتّخذ النسق من الخارج، وعند كل عينة، تترك البرهنة مكانا ما لخطورة المحاجة."[3]

فيما يتعلّق بحالة المحاجة، بعكس ما سبق كله، إن المنظور ينقلب كلياً؛ بالفعل، إن كل محاجة لا تكون إلا متعلّقة أو بالنسبة للجمهور المتلقي للخطاب. وهي مضطرة لأخذ كل ذلك بعين الاعتبار.

II- الْجُمْهُورُ الْمُتَلَقِّي لِلْخِطَابِ وشُرُوطُ قِيَّامِ الْمُحَاجَّةِ

لابد في كلّ محاجة، التوجه نحو "**إذعانية الأنفس**". لذلك تستدعي المحاجة نوعاً من الاتصال الذهني، إنها شكل من المجتمع المتعايش يحتضن الخطيب إلى جانب الجمهور المتلقي لخطابه، بناء عليه، لكي يتواجد ويستمر هذا **المجتمع المتعايش** الفريد من نوعه، ولكي تزدهر المحاجة وتتبرعم؛ من اللازم توفر **شروط معيّنة**.

- **اللغة المشتركة**

الشرط الرئيسي من مستوى لساني، " يقتضي التمرن الفعال على المحاجَّة توفّر وسيلة اتصال، لغة مشتركة، هذه التي في غيابها لن يحقق في الواقع "**تواصل الأنفس**"؛ اللغة هي النتاج الخاص بتراث اجتماعي، تتخذ لها هالة لغة طبيعية أو لغة تقنية؛ إنها مشتركة فيما بين أعضاء اختصاص ما أو مهنة

[3]- PERELMAN(Chaïm) 1968 ; Eléments d'une Théorie de l'Augmentation ; PUB ; pp. 17-18

معيّنة. و هي تختلف من كونها لسانا عامياً إلى كونها لسانا متخصصاً للمتعلمين وحدهم."[4]؛ ومع ذلك، حتى وأن تكلم أناس باللسان نفسه، فإن مجرد التكلم لا يضطرهم لبلوغ مستوى المحاجة.

- **الخطيب والجمهور المتلقي للخطاب**

بجانب شرط **اللُّغة المشتركة** أعلاه، لدينا **شرطين آخريْن متخصِّصيْن** هما؛ وجود **ذات تقول** شيئا ما، و وجود **ذات أخرى تتلقى** هذا القول و**تتفاعل** معه.

من **جهة الخطيب**؛ قد لا يكون هذا الشخص منتمياً إلى ذلك الجمهور المتلقي للخطاب الذي إليه يتوجه بالقول. هذا إذا ما كان يجتهد في افتكاك إذعانيته انطلاقاً من مقدّمات هو نفسه لا يقر بها، ولا يعترف بوجاهتها. لكن، سواء انتمى أو لم ينتم لهذا الجمهور، وجب عليه في كلّ الأحوال "إبداء الرغبة الحادة" في طلب الحصول على إذعانية من يتوجه إليهم.

استناداً إلى هذا الواقع، يجب على الخطيب الاعتراف الصريح بقدرة جمهور خطابه ونوعية الكفاءة التي تميّزه، سيعتبره كموجود لابدّ أن تتوصل معه إلى تسوية ما عن طريق التواصل؛ لذلك عليه التخلي تماماً، وهو في حضرته، عن استراتيجية "إصدار الأوامر"، "الاحتقار"، و"التكبر" ... عوضاً عنها، عليه بذل جهده في ربح إذعانيته.

لبلوغ هذه الغاية، يضطر الخطيب، أن يأخذ بعين الاعتبار، كافة استجابات الجمهور المتلقي لخطابه، لابدّ عليه أن يتكيّف معه إلى أقصى الحدود. إلا أنه، قد يحصل في ظروف معيّنة، أن تكون هذه الاستراتيجية التكيفية غير مشرّفة تماماً.

وقد يحصل في بعض المقامات أن يكون اللجوء إلى القول والخطاب، مجهوداً واهياً بلا فائدة؛ يقول (بيرلمان) في هذا الشأن أنّ، "هناك وضعيات أين يكون فيها استعمال القوة هو التدبير

[4]- PERELMAN(Chaïm) 1959 ; les cadres Sociaux de l'Argumentation ; in les Cahiers Internationaux de Sociologie ; p.26

الوحيد المطلوب."[5] أمّا من جهة الجمهور المتلقي للخطاب، فمن الضروري توفر استعداد كبير للإصغاء؛ الاستماع أو الميل للقراءة، الاهتمام بالخطاب وحسن تلقّيه.

لابدّ من ترك النفس طليقة للتأثّر بالرسالة. إلا أن هذا الشرط ليس بالهيّن ومن الصّعب توفيره. يجب على الخطيب، قبل أي شيءٍ آخر، أن يجد **الوسيلة*** التي يصل بفضلها إلى شدّ انتباه جمهور خطابه.

إلا أننا في نظرية المحاجة، ضمن إمبراطورية البلاغيات الجديدة، كما حصرها (بيرلمان) يجري الاقتصار، في هذه العملية، فقط على كلّ ما يتعلّق من الاشراطيات بواسطة الخطاب. لذلك إن مشكلة إثارة اهتمام الغير بقضية أو أطروحة ما، أمر يستدعي مجهودات جبّارة عادة ما تتواجد في صميم المحاجة.

لكن، هذا كلّه لم يمنع (بيرلمان) من لفت انتباهنا إلى أهمية النّظر النقدي في طبيعة المؤسسات الاجتماعية الحديثة التي تقوم بـ "تسيير" حركة الخطابات داخل الفضاء العمومي؛

" كل مجتمع يمتلك مؤسسات يستشرف احتفالات، أهم ما فيها التكافل الاجتماعي، طقس الأبطال والحكماء الذين يشكلون المناويل (القدوة الحسنة) المعترف بها – المعتبرة، عملية البث بواسطة التربية، ما بين الأطفال والراشدين لجملة القيم المقبولة، المطلوبة، المحمودة. وفي مجتمعات معينة، يكون التمرس بالمحاجة محصوراً في قطاعات متنوعة، وحكراً على أشخاص ومنظمات مهيأة خصيصاً لهذا الغرض؛ وقد يخضع هذا التمرس في بعض الأحيان لطلب الإذن، أو يظلّ تحت الرقابة المسبقة.هناك على الدوام، مجالات تخاطر فيها المحاجَّة بأن تكون غير قانونية – لاشرعية، خرق لل" قوانين" التي تحمي الصالح العام والخاص. بناء عليه، من اللازم، في حالات عديدة، امتلاك ميزة، الانتماء لجماعة أو مؤسسة ما أو التكلم باسم هذه أو تلك. وقد تكون المحاجة في مقامات أخرى، محصورة بالزمن، الزمن المرخّص به،

---

[5]- PERELMAN(Chaïm) 1968 ; Eléments d'une Théorie de l'Augmentation ; PUB ; pp. 17-18

* تجري اليوم، كما في الماضي، استحداث أجواء اصطناعية تساعد على شدّ الانتباه، الفضاء، الإضاءة، الموسيقى، ... وفيما يتعلّق بالنصوص، جودة الطباعة وتزويق النص ...

طبيعة الموضوع، المطروح، اللحظة التي العرض فيها: في هذا الشأن هناك تقاليد وتشريعات، وقوانين الإجراء المدني والعقابي، كلها مفيدة عند الاطلاع عليها من وجهة النظر هذه."[6]

إذن تتوفر المجتمعات الحديثة – أكثر من غيرها – على مؤسسات تسمح بتحقق المحاجات وازدهارها. إلا أن المبالغة في الضبط القانوني للمحاجة وتوسيع نطاق "الممنوع الحجاج فيه"، "المحرم الحجاج فيه" ... هو حصر لها وتضييق على نموّها، وقد يحصل في بعض المؤسسات أن تكون مستحيلة تماماً.

"يكفي التدبر ملياً في ذلك الاستحواذ الكلي على وسائل الاتصال الذي يميز الدول الإطلاقية النزعة، فالمنع قائم على كافة الوسائل الضامنة أو المرتقبة، لتلاقي الأنفس. حرية القول وحرية الصحافة، مغامرتان مهمتان في الديمقراطية، لكن، حتى وإن كنّا: داخل مجتمع متحرر تماما، ليس للجميع الحق في أخذ الكلمة، في أي شروط كانت، ولا يسمح له بشد إصغاء الغير له. حتى المناضل الأشد التزاما بالحوار لن يكون أبداً على استعداد للدخول بالتزام مع أيّ كان في مناقشة حول أي موضوع كان."[7]

إضافة إلى كلّ ذلك، لا ينبغي الاعتقاد بأنّ كلّ شيء هو موضوع محاجة. لا، هناك الكثير من "الأحداث"، "الحقائق" ... التي لا داعي تماما لإثارة الحجاج من حولها.

لاحظ (أرسطو) منذ العصر العتيق، أن هناك مسائل من الأحسن تجنب فتح النقاش حولها؛ يقول في كتاب "المواضع"؛ "على سبيل المثال، أولئك الذين يتساءلون حول معرفة عما إذا كان من اللازم تشريف الآلهة وحبّ الوالدين ... فإن هؤلاء ليسوا في حاجة سوى لتعزيز جيد. كذلك أولئك الذين يتساءلون، هل الثلج أبيض؛ كل ما يطلب منهم، المشاهدة فقط."[8]

---

[6]- PERELMAN(Chaïm) 1959 ; les cadres Sociaux de l'Argumentation ; in les Cahiers Internationaux de Sociologie ; pp. 25-26

[7]- PERELMAN(Chaïm) 1997 ; l'Empire Rhétorique : rhétorique et argumentation; p. 25

[8]- PERELMAN(Chaïm) 1997 ; l'Empire Rhétorique : rhétorique et argumentation; p. 25

إذن، المحاجة تستلزم على الدوام "**الاتصال الذهني**" فيما بين الخطيب والجمهور المتلقي لخطابه. و لكي يتحقّق هذا الاتصال فعلاً، كان من اللازم، قبل أي شيء، استعمالهما معاً "اللغة" عينها.

كذلك، لابد أن يتحلى الخطيب **بإرادة لا تُقهر** في حرصه على افتكاك **إذعانية جمهور** معيّن لما يقول. لكن، ليس ذلك بأن يفرض عليهم من فوق وجهة نظره؛ من المهم جدا، بل من الضروري أن يكون جمهور الخطاب على "استعداد تام للإصغاء". سنقنع بذلك الاصغاء الذي تفضله المؤسسات الاجتماعية ريثما نطالب بما هو أكثر. فالمجتمعات اللاَّ ديمقراطية تميل بكلّ ثقلها إلى اختزال مناسبات الحجاج، حتى أنه في مواضع معيّنة تكون المحاجة عديمة الفائدة تماما. "إن ظهور نظريات الحجاج يعتمد أيضاً على العوامل الاجتماعية. فحظوظ الاهتمام بالحجاج وتطوره لا تكون وافرة إلا في **مجتمع علماني**،* **ديمقراطي**، ومسالم؛ لكنه قادر في الوقت ذاته، على إثارة السؤال. فالحجاج هو بطريقة أو بأخرى الفرضية المناهضة لما هو مقرر سلفاً."[9]

---

* لقد **فوجئنا** بوجود هامش **مثير للغرابة** زُرع على أرضية **نص يؤرخ لنظريات المحاجَّة في الغرب**؛ يعترض فيه المترجم على المؤلفين، فيما يتعلق بشرط **علمنة المجتمع المدني**، بقوله:

" لا نعتقد أن الحجاج يحتاج إلى مجتمع علماني يفصل الدين عن الدولة أو الدين عن المجتمع لكي يتطوّر. القضية تتعلّق بنوعية الفكر الديني، فنحن لا نعتقد إمكانية الحديث عن فكر ديني بصيغة المفرد، إنما على اختلافات متعدّدة تتعلّق بكلّ دين على حدة. وإذا كانت هناك بعض السمات التي تجمع الأديان، فإن ذلك لا يعدّ مبررا كافيا للحديث عن فكر ديني يجمع اليهودية والمسيحية والإسلام وغيرها من الأديان والمعتقدات، لذلك نعتقد أن الحجاج يمكن أن يتطور داخل مجتمع لا يفصل الدين عن الدولة والمجتمع إذا كان هذا الدين يتقبل الاختلاف. ويقر بحق الناس في المعرفة. ونعتقد أن الإسلام يمكن أن يكون هذا الدين. حتى مع تلك التجاوزات الخطيرة لحرية التفكير والتعبير في بعض البلدان الإسلامية فالمرجع هو القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالقرآن حمل في أول سورة كلمة "اقرأ" حتى وإن اختلف تفسيرها فهي تحمل على التعلم وأخبرنا عن ذلك النقاش الذي دار بين الله وإبليس عندما رفض السجود لآدم، وأخبرنا بأن موسى ذهب إلى فرعون يناقشه في الإيمان وأن الله طلب من موسى وهارون أن يقولا له (فقولا ليِّنا لعله يتذكر أو يخشى. الآية 44 من سورة طه)" د. محمد صالح نادي الغامدي، ص 14

9- **بروتون** (فيليب) و **جوتييه** (جيل): **تاريخ نظريَّات الحجاج** 2011؛ ترجمة : **محمد صالح نادي الغامدي**

III–مختلف أنواع الجماهير المتلقية للخطاب

ذكرنا من قبل، أنه يجب على الخطيب أن يأخذ بعين الاعتبار استجابات الجمهور المتلقي لخطابه؛ لكن، ما الذي يعنيه تصور الجمهور المتلقي للخطاب عند (شايم بيرلمان)؟

" كيف لنا معرفة الجهاز المكون لجمهور الخطاب؟ هل يكون الشخص عينه الذي يناديه الخطيب باسمه؟ ليس دائماً: فالنائب، داخل البرلمان الإنجليزي، يجب عليه التوجه – بخطابه – مباشرة إلى الرئيس ليكن في استطاعته البحث في كيفية إقناع، ليس فقط من يصغي إليه، إنما أيضاً الرأي العام الذي يشكل الوطن.؛ هل هو مجموع الأشخاص الذين يشاهدهم الخطيب أمامه، في حضرته وهو يأخذ الكلمة؟ ليس ذلك بالضرورة. في استطاعة الخطيب، وبشكلٍ جيد، عدم الاكتراث تماما ببعضهم: فرئيس حكومة، عبر خطاب في البرلمان، يستطيع التخلي تماما وبشكلٍ مسبق عن إقناع المعارضة والاكتفاء بإذعانية الأغلبية التي تؤيده.

في جانب آخر، من يقرر عقد جلسة مع صحافيّ، فهو يعتبر بأن جمهور خطابه يتشكل من قراء الجريدة وليس من هذا الشخص الجالس أمامه؛ إنّ السر في المداولة، عند تعديل الفكرة التي تكون لدى الخطيب عن جمهور خطابه، هي ما يقدر على تحويل مصطلحات خطابه. نلاحظ هنا مباشرة من خلال الأمثلة، كم من الصعب، حتى بمساعدة خصائص مميزة مادية خالصة، تحديد جمهور الخطاب الذي إليه نتوجّه. وتصبح هذه الصعوبة مضاعفة، عندما يتعلّق الأمر "بالجمهور المتلقي لخطاب الكاتب"، ذلك لأنه من العسير في أغلب الأحيان رصد القراء بكلّ دقة ! لهذه العلة، يبدو لنا من الأفضل تعريف الجمهور المتلقي للخطاب، في مادة البلاغيات، بأنه مجموعة أولئك الذين يعمل الخطيب مؤثراً فيهم بواسطة محاجته. كل خطيب يفكر، بطريقة واعية إلى حد ما، في أولئك الذين يبحث في إفحامهم، هؤلاء الذين يشكلون الجمهور المتلقي للخطاب **هم الغاية** من خطاباته."[10]

يُلاحظ أن الجمهور المتلقي للخطاب و قد جرى تعريفه على هذا النحو سيكون متغيراً وغير مستقر الدلالة تماماً:

من ناحية **الكمية**؛ يبدأ بالخطيب في حد ذاته، فيما يُطلق عليه **المداولة الحميمة**، وصولاً إلى غاية الإنسانية برمّتها، مرورا بينهما، عبر ذلك التنوع اللاّمتناهي من الجماهير المتلقية للخطابات في مختلف صورها الجزئية. لكن، بمختلف الصور التي يتخذها الجمهور المتلقي للخطاب يُمكن له،

" أن يتغيّر **بألف طريقة** أخرى، بحسب السن، الجنس، المزاج، الكفاءة وكافة أنواع الخصائص المميزة سواء الاجتماعية أو السياسية. لها أن تتغير أيضاً تبعاً للوظائف المشغولة وعلى نحوٍ خاص جداً تبعاً للدور الموكول للمستمعين المتمثل في التوصل إلى اتخاذ قرار كيفما كانت طبيعته، أو بكل بساطة، في تشكيل رأي ما، اكتساب استعداد ما للقيام بفعل ما مرتقب وغير محدّد."[11]

---

[10]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; pp.24-25

[11]- PERELMAN(Chaïm) 1959 ; les cadres Sociaux de l'Argumentation ; in les Cahiers Internationaux de Sociologie ; pp. 25

مع ذلك، فمهما عظم تنوع الجماهير المتلقية للخطابات، فإن عددا معيناً منها فقط سيبدي قيمة خاصة.

- **المداولة الحميمة**

تطلب أن يدرك فرد ما نفسه باعتباره منقسماً على الأقل إلى متحدّثين اثنين وهما يحاجّان في اتجاهين متضادين.

عند كاتب على شاكلة (باسكال –PASCAL)، إن المداولة الحميمية مع الذات عينها، تشكل منوال الاستدلال الصادق والمخلص.

ومع ذلك قد بين التحليل النفسي في القرن XX أنه في استطاعتنا تضليل الذات – عينها، وأنّ التعليلات المقدمة عادة ما هي تكون فقط عمليات استعقال، أي مجرد تمويهات عقلية.

فالمداولة مع الذات – عينها، لن تستطيع إذن أن تقاسمنا كافة الطرائق الهادفة إلى ربح الغير: فما هي سوى حالة خاصّة من الاتفاق مع الآخرين، إنها أقرب إلى المحاورة.

- **المحاورة مع الغير**

في **الْحِوَار** أو اَلتَّحَاوُرِ، الذي هو **مُحَاجَّةٌ مع مستمع واحدٍ**، لا تكون تقنية المحاجَّة هي نفسها أمام جمهور متلقي للخطاب كبير. من اللاَّزم **التعرُّف** على الآراء و القيم التي **يُذعِن** لها المتحدثون فيما بينهم، ومن الضَّروري، **عند كل خطوة، الحصول على موافقتهم.**

لدينا–مثلا– **تقنية الأسئلة والأجوبة**، تسمح على هذا النحو باختيار الفكرة التي تكون قد شكلناها عن المستمع، إلا أن هذه التقنية مستحيلة مع جمهور متلقي للخطاب، كبير ومعقد التركيب. و مع ذلك يجب على الخطيب أن يأخذ بعين الاعتبار استجابات من يستمع إليه، وبهذا تكون له فرصة المشاركة في المناظرة. رغم ذلك، قد توهمنا هذه التقنية بأننا نسبح في أجواءٍ من **الحقيقة**، ذلك لأنّ كل حلقة من المحاجَّة قد تمّ قبولها:

إلا أنّ حصول **الاتفاق** وثبوت الحقيقة **تصوران متمايزان للغاية**. ومع ذلك فإنّ هذا الغموض هو ما يفسّر لنا **حذر وحيطة الفلاسفة من الحوار و التحاور**.*

رغم ذلك، سنلاحظ، أن ثمة محاورات كتلك التي لـ (أفلاطون– PLATON) أين يكون المستمع الوحيد مجسّداً بالفعل لذلك الجمهور المتلقي للخطاب الكوني؛ من هنا جاء الطموح للحقيقة.

- **جمهور الخطاب الخاص والجمهور المُتلقِّي للخطاب الكوني**

قد يحصل للمستمع الوحيد أن يجسد جمهور خطاب جزئي أو خاص. على سبيل المثال، عندما يأخذ أحدهم الكلمة نيابة عن جماعة؛ رسول جماعة مثلا. أو عندما يجري اعتباره عيِّنة تمثل جمهور خطاب ما. ومع ذلك، يجب التعمق أكثر في تحليل التصوُّرين.

فعندما يكون الخطيب في حضرة عدة مستمعين، كيف يستطيع إذن افتكاك إذعانية–تأييدية جميع أولئك الذين يُريد إفحامهم بخطابه؟

سيكون الأمر أسهل إذا توجه الخطيب إلى جمهور متلقي للخطاب يكون **متخصِّصاً**. على سبيل المثال؛ فوج من الفيزيائيين، من النَّقَابِيين. أو حتى **جماعة متجانسة** تعتقد في دِينٍ معيّن. فالخاصة المميزة لهذا الجمهور المتلقي للخطاب، هي أنه مستعدّ للإذعان لأطروحات معروفة مسبقاً، نادراً ما يتمّ جعلها موضع سؤال. بالتالي فعلى أرضيتها يشيدُ الخطيب قوله ليجعل هؤلاء يقرون بأطروحات أخرى ذات معنى أبعد.

في ظلّ هذا المقام، لن نكون في حاجة للتأكيد على اتفاق – إجماع المستمعين، لأن كل ذلك مُعطى ومضموناً حتى قبل الدخول في المحاجَّة.

---

* هناك تفاصيل أكثر عن **المحاورة** و**الجدليات** في المصدر: **PERELMAN (Chaïm) 1970 ; Dialectique et dialogue.**

لكن الاعتماد على الأطروحات المتخصصَّة سيكون قليل الفعالية خصوصاً إذا ما كانت الأسئلة المطروحة للنَّظر تتطلب الاستعانة بشتى مظاهر شخصيات المستمعين. لأن كل واحد من هؤلاء قد يكون في آنٍ واحدٍ منخرطاً في عدة أنواع من جماهير الخطابات، وبهذا المعنى ستكون استجاباته غير مرتقبة تماماً!!

من هنا يضطرُّ الخطيب اللجوء مباشرة ليتوجَّه بمُحاجَّته نحو الجمهور المتلقي للخطاب الكوني. إنه **الغاية القصوى لخطاب الفلاسفة**.

"بينما يتوجه الخطيب المتخصص نحو مجتمع عالمٍ، ويقوم رجل الدين داعياً داخل كنيسته، كلاهما يعرف جيداً على أيّ أطروحات يستطيعان إقامة عروضهم. أما الفيلسوف فيجد نفسه ضمن وضعية في غاية الصعوبة، ذلك لأن خطابه وهو يتوجه، من حيث المبدأ، إلى الجميع، إلى الجمهور المتلقي للخطاب الكوني. هذا الذي يتركب من جميع أولئك الذين لديهم استعداداً للإصغاء، يمتلكون القدرة على متابعة محاجة ما، لا يمتلك ما عند العالم أو رجل الدين، أي مجموعة من الأطروحات الفلسفية المقبولة عند كافة أعضاء جمهور الخطاب.

من هنا العلة في بحثه الدائم عن "الأحداث"، "الحقائق" و"القيم" العالمية – الكونية التي، وإن كانت الأطروحات التي تثيرها لم تصل بعد لإذعانية صريحة لدى كافة أعضاء الجمهور المتلقي للخطاب – الأمر الذي يستحيل بلوغه – فهي على الرغم من ذلك قادرة على فرض نفسها بما يكفي على كل موجود عاقل ومتنور كما يجب. يتعلق الأمر بكل ذلك، عندما يذهب الفيلسوف طلباً في الحس المشترك أو الرأي العام، في الحدس أو البداهة؛ مدعياً بهذا أن كل واحد من أعضاء الجمهور المتلقي للخطاب الكوني إلا وينتمي إلى هذه الجماعة التي إليها يُشير الخطيب، حتى أنها تُدرك معه الحدوس عينها وتتقاسم معه البداهات نفسها. لن تكفي مجرد إنكارية بسيطة في التشهير بعدم الاتفاق، ذلك إذا كان خطاب الفيلسوف يبدو معقولاً، مقبولاً ومُقنعاً على العموم، سيكون إذن من واجب المناهض –المعاند أن يُقيم الدليل ويبيّن بأنه ليس ذلك الأخرق (إن لم نقل الأحمق) الذي يعارض الرأي العام لمجرد الاعتراض فقط، إنما بحوزته تعليلات جيدة لدعم معارضته تلك أو على الأقل شكيته في الأمور.

بناءا عليه، في هذه المرة، حتى وإن كان الأمر لا يتعلّق بخطابٍ موجه نحو فرد واحدٍ أو عدد صغير من الناس، فإنه خطاب يحمل نداءا للعقل، معنى ذلك الجمهور المتلقي للخطاب الكوني، وبذلك تتجلى ضرورة الحوار، الذي سينصبّ على كافة النقاط السجالية. الأمر الذي يجعل الجدليات، أو تقنية المناظرة، تحتل المكانة المركزية للغاية في المحاجة الفلسفية، تماما كما آمنت بها المحاورات السقراطية، وتلك التي ميزت الفلاسفة الذين استلهموها من بعد."[12]

الملاحظ أن هذا "**الجمهور المتلقي للخطاب الكوني**" ليس واقعة اجتماعية ملموسة – متجسدة، إنما هو اشتغال من تشييد الخطيب نفسه، انطلاقاً من عناصر في تجربته؛ إنه جمهور متلق للخطاب مثالي، متخيّل، يتألف من كافة أولئك الذين لا يحقُّ لنا القول بأنهم ناقصي عقلاً/تعقُّلاً.

بما أنه مجرد **تشييدية ذهنية**، فإن "الجمهور المتلقي للخطاب الكوني" هذا، سيخضع للتغيّر بحسب "الأفراد" وتبعاً "للعصور"؛

"كما يحدث في غالب الأحيان، عندما نصبح عدّة متحدثين مع بعضهم البعض، ونحن ندخل في نقاش مع خصم لنا منافس، فإننا سنبحث أيضاً كيف نُقنع الأشخاص الذين يحضرون النقاش – المناقشة، نفس الشيء يحصل بالضرورة أن يتصادف الجمهور المتلقي للخطاب الكوني الذي يجدر بنا التوجه إليه مع ذلك الجمهور الجزئي – الخاص الذي نعرف عنه الكثير والذي قد يتعالى على بعض الاعتراضات التي تكون في تلك اللحظة على وعيٍ تام بها. الواقع، أننا نصنع لأنفسنا منوالاً للإنسان – تجسيدية للعقل، للوعي الخاص أو الفلسفة اللذان يشغلان بالنا – الذي نبحث كيف نقنعه والذي يتغيّر تبعاً لمعرفتنا بالناس الآخرين، بالحضارات الأخرى وبأنساق الفكر المختلفة، إضافة إلى ما نقر عن علمٍ بأنه حدثٌ لا نقاش

[12]- PERELMAN(Chaïm) 1997 ; l'Empire Rhétorique : rhétorique et argumentation; pp.30-31

فيه، أو حقائق موضوعية. نصل إلى هذا القول، بأن ذلك هو العلة، التي لأجلها ينفرد كل علمٍ ... بل وحتى كلّ فردٍ، بالجمهور التلقي للخطاب الكوني الخاص به."[13]

ما دام "الجمهور المتلقي للخطاب الكوني" شأنه لا يتقبل سوى ما يكون عقلياً، في استطاعتنا إذن، **استعمال صفة المعقول** لنعت كل محاجَّة تخضع **للأمر القطعي** الحاكم بعدم استعمال سوى مقدمات و استدلالات صالحة لدى الجماعة المتضامنة من الأنفس المتعقِّلة، معنى ذلك لدى الجمهور المتلقي للخطاب الكوني.

نلاحظ أن هذه المفهمة الجديدة للجمهور المتلقي للخطاب الكوني، سينجر عنها إعادة تعريف – تحديد ذلك التضاد القائم فيما بين **الفعلين الرئيسيين** في المُحاجَّة:

- ❖ فعل الإفحامpersuader
- ❖ فعل الإقناع–الاقتناعcoviction–convaicre

لهذا الغرض يقدم لنا (بيرلمان–تيتكا) تدقيقاً في الأمر نراه يحمل فائدة كبيرة:

" إن ذلك **التمييز** فيما بين الخطابات الموجهة إلى البعض وتلك التي هي صالحة عند الجميع، يسمح لنا كي نفهم جيداً ما الذي يُحدِث تعارضا بين **الخطاب الإفحامي** وذلك الخطاب الذي يريد لنفسه أن يكون **إقناعياً**. بدلا من اعتبار الإفحامية تتوجه نحو المخيلة، نحو المشاعر وبكل اختصار نحو إنسان آلي. في حين يستدعي الخطاب الإقناعي العقل. بدلا من وضعهما في حالة التعارض بالتضاد، الواحد صوب الآخر، كما يحرص وضع الذاتي صوب الموضوعي، [بدلاً من كلّ ذلك] في استطاعتنا أن نضع لهما خصائص مميزة بطريقة أكثر تقنية، وهي بذلك أكثير تدقيقاً. سنقول بأن خطاب يتوجه نحو الجمهور المتلقي للخطاب الخاص، سيهدف إلى الإفحام، في حين أن كلّ خطاب يتوجه إلى **الجمهور المتلقي للخطاب الكوني**، سيهدف إلى الإقناع.

---

[13]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) 1950 ; Logique et Rhétorique ; in Revue Philosophique de la France et de l'Etranger, p. 22 ; Paris, Repris in Rhétorique et Philosophie 1952, p.1

هذا **التمييز** وقد طُرح على هذا النحو، لا يعتمد بتاتا على عدد الأشخاص الذين يستمعون لخطيب ما، إنما يعتمد أساسا على **قصود ونوايا** هذا الخطيب عينه (هل ينوي في قرارة نفسه افتكاك إذعانية البعض فقط ممن يستمعون إليه، أم أنه يُريد، يطلب إذعان كل موجود عاقل؟)؛ نعم، قد يحصل ألا يعتبر الخطيب أولئك الذين يتوجه إليهم – حتى وإن تعلّق الأمر بمداولة حميمة – سوى من حيث هم تجسيداً للجمهور المتلقي للخطاب الكوني. **فالخطاب المقنع، هو ذلك الخطاب الذي تكون فيه "المقدمات" و"الحجج" قابلة لأن تصبح كونية**؛ معنى ذلك أنها مقبولة، من حيث المبدأ، عند كافة أعضاء الجمهور المتلقي للخطاب الكوني. نشاهد مباشرة كيف أنه، من هذا المنظور، حتى **أصالة الفلسفة** عينها هذه التي تجتمع تقليدياً مع تصوري الحقيقة والعقل، سيجري – من الآن فصاعداً – **فهمها على نحوٍ أفضل** بواسطة **علاقتها** بالجمهور المتلقي للخطاب الكوني، وكذا **الطريقة** التي يجري بها **تصور** هذا الأخير من طرف الفيلسوف."[14]

لدينا هنا، **مفهمتان اثنتان للعقل** تختلفان عن بعضهما، وتستحقان الالتفات:

لدى بعضهم، **المعقول** هو ما يجري قبوله لدى الحسّ المشترك أو بواسطة العقل، ثمَّ **الاتفاق الكوني–الكلي**، هذا الذي يتعالى على كافة التنوعات، يزودنا بتسمية مشتركة ويشكل علامة على القيمة الموضوعية لما هو موجود، وأيضاً، معترف به باعتباره صالحاً لدى الجميع؛ "بالفعل، كل واحد يشكل لنفسه فكرة – مثلى عن هذا الجمهور المتلقي للخطاب الكوني انطلاقاً مما يعتبره صالحاً بالنسبة إليه، يجب على تعليلات هذه الصلاحية أن تكون فارضة نفسها من فوق على الجميع. هنا يكمن دور البداهة، التجربة، الواقع، الحقيقة. كل ذلك باختصار في كلمة الموضوعية، الأمر الذي يسمح بالعبور مما هو صالح لدى الخطيب إلى ما ينبغي أو يجب أن يُقبل عند الجميع."[15]

---

[14]- PERELMAN(Chaïm) 1997 ; l'Empire Rhétorique : rhétorique et argumentation; p.31

[15]-PERELMAN(Chaïm) 1968 ; Eléments d'une Théorie de l'Augmentation ; PUB ; p26

إن ما يستحضره خطيب ما، باعتباره صالحاً لدى الجميع، قد لا يكون عند الطرف الآخر، سوى رؤية جزئية خاصة بعصر ما. بل قد تكون مجرد رؤية فردية عن الأشياء؛ لدينا

"سوسيولوجيا المعرفة"، هي الاختصاص الذي يدرس ما يكون مع اختلاف الأوساط، قد جرى اعتباره كحقيقي واقع، صالح موضوعيا.

انطلاقا من هذا المنظور، فـ**العقل الخالد اللاَّمتغيّر** لدى أنصار مذهب العقلانية الكلاسيكية العظمى، **سيعدم نفسه من الآن فصاعداً كعقل مُحدَّد المقام تاريخيا واجتماعياً.**

- **الجمهور المتلقي للخطاب النُّخْبَوِيُّ:**

كما رأينا من قبل، فالجمهور المتلقي للخطاب الكوني هو جمهور مثالي، يتغيّر تبعاً للخطباء، ويكون متشكلاً إما من الإنسانية جمعاء أو إن تعذّر ذلك فعلى " الأقل من كافة الناس الراشدين العاديين."[16] لذلك فحصول " الاتفاق – الإجماع فيما بين أعضاء الجمهور المتلقي للخطاب الكوني ليس بقضية واقع حادث وإنما حق يُطلب."[17] رغم ذلك، إذا لم نتوصّل المحاجة الموجهة لهكذا جمهور متلقي للخطاب إلى إقناع كافة من وجب عليها إقناعه، سيكون في استطاعتها، على الأقل، إقصاء المعترض الأَخْرَقِ وذلك إما باعتباره غبياً أو شاذاً.

لكن، إذا ما كان العدد و القيمة الذهنية لهؤلاء الذين يجرى إقصاؤهم على هذا النحو خارج المجموعة، قد يشكّل خطراً، بحيث يجعل المحاجَّة **موضع سُخرية**، فلابد أن يُفْرَضَ من فوق على هذا الجمهور المتلقي للخطاب الكوني جمهوراً آخرَ هو "**الجمهور المتلقي للخطاب النخبوي**".

---

16 -PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p.39

17 -PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p.40

إنه الجمهور الذي يتمتّع بامتلاكه وسائل بارعة و عالمة في المعرفة الموْثوقه، لا مردّ لها. إنَّهم الأَخْيَارُ من بين الكل، ذوي الرُّؤية النافذة، الخبراء المُدَرَّبُون و المحترفون، هؤلاء الذين لهم الفضل، أو حتى هذا الموجود المتصف بالكمال. قد يجري اعتبار هذا الجمهور المتلقي للخطاب النخبوي إما كجماعة – فئة قائمة بذاتها يتصف بمقامها وتراتبها، أو مجرد طليعة، عبارة عن **مِنْوال يُحتذى**، كل ما يهمنا فيه؛ أن يكون رأيه مُطاع، بحيث يجب على بقية الجمهور الخضوع له.

لكن، فقط في هذه **الحالة الثانية** قد تجري **المطابقة** بين الجمهور المتلقي للخطاب النخبوي وذلك الجمهور الكوني.

IV-تَصَوُّرُ الْإِذْعَانِيَةِ فِي الْخِطَابِ الْحِجَاجِيِّ

مهما كان الجمهور المتلقي للخطاب الذي يتوجه إليه، فكلّ خطيب إنما يريد **افتكاك** أو **توسيع نطاق** إذعانية/تأييدية هذا الجمهور للأطروحات المقدّمة في حضرته.

إن المحاجَّة الفعَّالة، هي تلك التي تزيد في درجة شدة الإذعانية، بطريقة قد تصل بفضلها إلى **إطلاق العنان للفعل المرتقب لدى متلقي الخطاب**، أو على الأقل الطمع في أن تزرع فيه **الاستعداد لإنجاز هذا الفعل** يوما ما.

إلا أن هذا الفعل عينه، مثلما قد يُنصح به من طرف أحدهم قد لا يُنصح به من طرف خطيب آخر و بنفس الشدة والمهارة !

مثلاً، عند أولئك الذين **يعتقدون بوجود** "**حقيقة وحيدة**" في كل مادة اختصاص، فإنّ القيمة المحتملة لتأثير الاستدلالات المضادة سوف لن تكون سوى وهماً!! فكل ما يهمّ عند هؤلاء؛ هو الحقيقة، أو على أقل تقدير، احتماليتها الْمُحَوْسَبَةُ.

إلا أن هؤلاء، **منكري المُحَاجَّة**؛ ينسون تماماً أنّه ضمن مجالات معينة يكون **الدَّليل على صدق أو حتى احتمالية أطروحة ما من غير الممكن قبوله** ! سيكون الأمر هكذا مثلا في حالة، "ميل المحاجة إلى إثارة فعل ناتج عن اختيار بعد مداولة حرّة من بين ممكنات عديدة، من دون أن يكون ثمة اتفاق مسبق على خصوصية ما، تسمح بمراقبة الحلول."[18]

[18]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p.61

إلا أنه في مثل هذه الحالات؛ بدلا من قيام التعارض في الفهم بين اللاَّشخصي واللاَّزماني إضافة إلى لا معقولية الإرادة والأهواء... و **بدلا من تقطيع الإنسان إلى "ملكاتٍ" منفصلة كليا عن بعضها بعض، وبالتالي سلخ الفعل المؤسس على الاختيار، عن كلّ تبريرية عقلية وجعل حريَّة الإنسان مجرد عبث ... بدلا من كل هذا، ألا يكون من الأفضل هنا الاعتراف بأن المحاجَّة وحدها تستطيع أن تسمح لنا بفهم تلك القرارات التي نتخذها؟**

ثم هناك أمرُ **الآثار العملية للمحاجَّة**، هذه التي، " وهي تنعطف تجاه المستقبل، فإنها تقترح على نفسها التحفيز على الفعل أو التهيئة له وذلك بواسطة إعمال وسائل خطابية للتأثير في أَنْفُسِ المستمعين"[19] لذلك تكون **الإذعانية/التأييدية هي الغاية من المُحَاجَّة**، وتكون هي كذلك بالنظر إلى الفعل. فإذا وُجدت هناك محاجَّات معيّنة **تهدف** إلى الفعل مباشرة، قد توجد محاجَّات أخرى **تعفي** من الفعل، وقد جرى اعتماد هذه الطريقة ضمن **النوع المُشاوري** délibératif في تقسيم الخطابات العتيقة عند القدامى. هذا النوع الذي قد تمثّل في إنماء وتوسيع نطاق **الإذعانية للقيم المشتركة** فيما بين الجمهور المتلقي للخطاب والخطيب نفسه.

و هذا أيضاً ما تقترحه علينا "**نظرية التربية**"[20] التي يقول بها (بيرلمان) انطلاقا من الخطاب المشاوري وهو **يعترض بها على الدِّعاية** التي يستحيل الجلوس فيها على طاولة النقاش ضمن جماعة قيمية تضم الخطيب والجمهور المتلقي الخطاب. فكل ما تعرفه الدَّعاية هو **الوئام المسبق مع جمهور مستمتع حاضر**. أما **التَّربية** فإنها مثل الخطاب المشاوري، تهدف إلى إنماء وتوسيع نطاق الإذعانية لما قد جرى قبوله و **الاقتناع** به. بينما كل ما تريده الدعاية هو **ضبط المعتقدات وتعديلها**.

---

[19]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p.62

[20]- PERELMAN(Chaïm)1951 ,le ROLE de Model dans l'éducation ; Morale et Eseignement,Bruxelles N 3,Repris in le Champ de l'Argumentation p. 391

V-الْمُحَاجَّةُ، الْعُنْفُ وَالِالْتِزَامُ

لكي **يرتقي المجتمع بقيَّمة** الخاصة يضع **مناسبات مفظلة** ويعتمد على الخطاب التشاوري. لكن إذا كان هذا المجتمع ضدّ الخطابات التي قد تعترض على قيمه، فإنه قد يلجأ لاستعمال **القوة**. " نستطيع بالفعل، الحصول على النتيجة نفسها، إما بواسطة اللجوء إلى العنف أو باللجوء إلى إذعانية الأنفس."[21] لكن، عندما **يقرر المجتمع الاعتماد على المحاجة**، فإنه بذلك **يعلن صراحة** بأنه قد **تخلّى عن استعمال القوة**، وهو يذهب إلى **تثمين إذعانية من يتحدّث إليه ويحترم حرية الحكم عنده**. نعم، قد يعترض أحدهم بقوله؛ إنَّ اللجوء للمحاجَّة إنما هو مجرد مداورة ! .. ألا يكون ذلك الاتفاق المتوصل إليه سوى صورة متنكرة للهيمنة أو مجرد رمز يدلّ على الإرادة الطيبة!!؟

نعم ... لا يُمكن إنكار مثل هذا الموقف بشكلٍ قبلي. إلا أنّه من الصّعب جداً تفسير عملية التَّهَجُّم على الجهاز الحجاجيِّ و التَّضْييق عليه، إذا لم يكن ثمة، و في حالات معينة تأثير إفحامي حقيقي! فكلُّ مجتمع يستشرف إقامة مؤسسات (قضائية، سياسية وديبلوماسية ...) حتى ينجح في ضبط التَّصَارُعات الداخلية والخارجية **بعيداً عن استعمال العنف**.

رغم ذلك، كما أُشير إليه من قبل، ونحن بصدد الكلام عن الشروط المسبقة للمحاجَّة، هناك مواضيع لا ينبغي أن تكون محلّ نقاش، حتى وإن كانت المناقشة من الأمور الشائعة في المجتمع، **هناك مواضيع لا تتم عملية مناقشتها سوى داخل إطار مضبوط قانونياً**.

والآن، أين يتحدّد موقع المحاجَّة من الالتزام؟

---

[21]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p. 73

في **مجال الفعل** الإنسانيِّ، **ليس للموضوعية المعنى نفسه** ولا بالأهمية عينها كما تحظى به داخل مجال المعرفة النظرية الخالصة.

فإذا كانت الموضوعية، بالنسبة لقرار ما يُتّخذ، تكمن في أنها لا نفعية على نحو كامل، سيجري اعتبارها سيّئة عند الجماعة التي قد تقوم باتخاذ القرار و التي لا تأخذ بالرأي الذي يقوم فيه أيُّ غريب باتخاذ قرار ما يخصّ مستقبلها! ألا نكون هنا أبعد عن الموضوعية وأقرب إلى **الْحِيَّادِ؟** "أن تكون **محايداً ليس معناه أن تكون موضوعياً**، [الحياد] **هو أن تكون منتمياً إلى نفس الجماعة التي تقوم أنت بمحاكمتها، من دون الانحياز مسبقاً لأيٍّ منهما.**" [22] ؛ فالحياد كخاصية، إنما يقع في: "ما بين الموضوعية التي لا تعطي للطرف الثالث أي صلاحية للتدخّل، وذلك الروح المناظل الذي ينزع عنه هذه الصلاحية."[23]

لكن، **أن تكون محايداً، هو أيضاً التخلّي عن التطرُّف وعن مذهب الشكّ معاً.**

" إن **الدليل البلاغي** لا يقوم على الضَّرورة بشكلٍ كاملٍ، لأنّ النفس التي تهب إذعانيتها لنتائج مُحاجَّة ما، إنما تقوم بذلك انطلاقاً من **فعل تلتزم به** وتكون **عنه مسؤولة**؛ قد يقبل الْمُتَطَرِّفُ هذا الالتزام، لكن على طريقة من ينحني أمام حقيقة مطلقة لا تنفصم؛ الشَّاكُ أيضاً، يرفض هذا الالتزام بذريعة أنه لا يبدو في نظره نهائياً. إنما يرفض الإذعان، ذلك لأنه يشكل لنفسه فكرة عن الإذعانية شبيهة بتلك التي عند المتطرف: إذن، هذا وذاك معاً لا يعرفان أنَّ المُحاجَّة تتوجه نحو الاختيار من بين عدة ممكنات؛ وذلك باقتراح وتبرير تراتبيتها، تتوجه إلى جعل أي قرار يُتَّخذ، أمراً معقولاً.

---

[22]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p.79

[23]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; p.80

إن **مذهبي التطرف والشك** معاً يَنْكران دور المحاجَّة هذا، في **اتخاذ قراراتنا**. إنهما يتوجَّهان معاً، في انعدام عقل قاهر، إلى إفساح المجال **للعنف** عند تضييقهما على التزام الشخص."[24]

خلاصة عامة

في الأخير لدينا:

الخطيب، هو من يقوم باستحضار المحاجة و عرضها أمام الجمهور المتلقِّي.

و الخطاب، هو المُحَاجَّة؛ أما الجمهور المتلقي للخطاب الخاص بالبلاغيات (هذا الذي لا يأخذ المنطق إطلاقاً بعين الاعتبار) فهو **مجموعة أولئك الذين إليهم تتوجه المحاجة.**

للتدقيق في تصور الجمهور المتلقي للخطاب، من الواجب قبل كلّ شيء آخر، الوقوف عند تصور الإذعانية. إنها تمثّل الغاية من المحاجة؛ تقتضي تواجد جماعة من "الأنفس" تشتمل كل من الخطيب مع الجمهور المتلقي لخطابه.

لن تقوم هذه الجماعة في الواقع ولن تتأسّس إلا بعد تحقق شروط معينة تسبق المحاجة:

1. توفر لغة مشتركة فيما بين الخطيب والجمهور.
2. امتلاك الخطيب لرغبة جامحة في افتكاك إذعانية الجمهور المتلقي لخطابه.
3. بذل الجهد من طرف الخطيب في التكيف مع جمهوره.
4. استعداد الأنفس التي تكون الجمهور المتلقي للخطاب للإصغاء باهتمام للأطروحة المقدّمة أمامهم.

---

[24]- PERELMAN(Chaïm) avec TYTECA (L.O.) ,2000 ; Traité de l'Argumentation : nouvelle rhétorique ; pp.82-83

كلّ هذا تستهله المجتمعات وهي تحدد مسبقاً المؤسسات التي تحتضن قيام المحاجات على اختلاف مقاماتها. مع العلم بوجود مقامات معيّنة تُلغى فيها المحاججة.

من واجب الخطيب أن يعلن صراحة بأنه يطلب إذعانية الجمهور المتلقي لخطابه.

هناك عدة أنماط من الجماهير المتلقية للخطابات البعض منها فقط يكون مهما على نحوٍ خاص:

1. **المداولة الحميمة**؛ هذه التي يتصور خلالها الفرد نفسه كما لو أنه منفصم إلى متحدّثين اثنين يُحاجّان في اتجاهين متعاكسين.
2. **المحاورة**؛ يقوم الخطيب بالدخول في محاجة مع مستمع واحد فقط.
   تسمح تقنية السؤال والجواب بالحصول، عند كلّ مرحلة، على موافقة المحاور.
3. **عندما يكون أعضاء الجمهور المتلقي للخطاب كثيرين ومتنوعين**؛

- تكون الأفضلية لجمهور الخطاب المتخصص لأن الخطيب يعلم مسبقاً الأطروحات التي يذعن لها أعضاؤه.
- ثمّ هناك الجمهور المتلقي للخطاب الكوني. إنه جمهور خطاب مثالي، تتشكل من كافة الموجودات العاقلة والكفأة.
- أخيراً لدينا الجمهور المتلقي للخطاب النخبوي الذي يتمّ اللجوء إليه لمحاصرة المعترضين والحمقى الذين محتوى استعراض المواقف الشاذة لإرباك المحاجة.

ليست **الإذعانية** نشاطاً تأملياً محضاً. إنما هي فعل في اتجاه محتوم. أو على الأقل هي ما يخلق الاستعداد لإنجاز هذا الفعل المرتقب.

المحاجة تتعارض مع العنف. إنها لا تفترق عن الالتزام الشخصي. وإذا كان باستطاعتها أن تكون محايدة وجب عليها إدانة الموضوعية والتحيّزية اللذان يمثلان مذهبا التطرف والشك معاً.